

الحركات الوطنية وأثرها في التأليف التاريخي

شهدت مصر نهضة قومية إصلاحية في مفتح القرن التاسع عشر ، فقد قاوم المصريون الحملة الفرنسية مقاومة عنيفة مستمرة إلى أن جلت عن أراضيهم ، ثم كان للمصريين رأى في اختيار محمد على والياً عليهم ، وفي عهده بدأت مصر تنفض عنها رداء الجمود الذى ران عليها طوال العصر العثمانى ، كما أخذت تبني لنفسها مجداً حربياً وصناعياً وثقافياً جديداً ، وكان لهذه النهضة أثرها الواضح فى حركة التأليف التاريخي ، وبخاصة فى كتابات رفاة الطهطاوى .

ثم أصيبت هذه النهضة بصدمة قوية عندما تكافت دول أوروبا للحد من أطماع محمد على ، وأجبرته على أن يلزم ملكه فى مصر ، وحدثت نكسة فى عهد عباس عندما أغلق معظم المدارس والمصانع التى أنشأها جده .

ولم تكن دول أوروبا وخاصة إنجلترا وفرنسا قد نسيتا أطلمهما

في مصر ، وهد لها إسماعيل السبيل بسياسته المالية الخرقاء ،
فبدأت الدولتان تتدخلان في شؤون مصر الداخلية بحجة المحافظة
على مالهما من ديون ، وفرضت الدولتان على مصر شبه حماية مشتركة
حين أوجدتا نظام الرقابة الثنائية ، وحين نجحتا في تعيين وزيرين
أوروبيين في الوزارة المصرية ، وبدأ المصريون يضيقون بهذه
الأوضاع : بتبعيتهم لتركيا ، وبفساد الحكم ، وبتسلط العنصر
التركي في الجيش ، وبالاضطراب المالي ، وبازدياد نفوذ الأوروبيين
واستغلالهم للامتيازات الأجنبية .

وبدأت الثورة العراقية حين بدأت داخل الجيش وإصلاح
الجيش ، ولكنها لم تلبث أن تطورت فأصبحت ثورة عامة
واحتضنت كل آمال الشعب وأخذت تعمل على تحقيقها ، وقد
مهدت لظهورها مقدمات وأسباب كثيرة ، لعل أهمها ظهور حركة
الجامعة الإسلامية ونموها ، وكان روح هذه الحركة وزعيمها
الأول جمال الدين الأفغاني .

وجمال الدين رجل كريم المحمد ، طيب المنبت ، أفغاني
أو إيراني الأصل ، امتاز بذكاء خارق ، وقضى حياته مرتحلاً ،
فزار الهند وبلاد العرب وإيران ومصر ، وفي كل بلد إسلامي نزل
به كان يرى أهله أذلة ، وكان يرى الأوروبيين هم الأعلون سلطاناً
ونفوذاً ، فحز في نفسه ما رأى وهاله ما شاهد ، فنادى بفكرة
الجامعة الإسلامية ، فقد كان يؤمن أن حاضر المسلمين لا يصلح

إلّا بما صلح به أولهم ، وأن الوحدة الجامعة كانت سبب قوتهم في الماضي ، وأن الفرقة المتخاذلة هي سبب ضعفهم في الحاضر ، وكان سلاحه الأكبر لتحقيق هذا الهدف إيجاد نظام حكم دستوري ، لأنه بعد تجارب متكررة يئس من حكام الشرق الإسلامي ومن احتمال أن يعاونوا على إقالة العالم الإسلامي من عثرته ، بل لقد آمن أن هؤلاء الحكام بنزعاتهم الاستبدادية القوية عامل آخر من عوامل التأخر ، فهم والنفوذ الأوربي آفتان يجب القضاء عليهما للنهضة بالعالم الإسلامي ، والسبيل إلى ذلك وحدة إسلامية ونظام شورى .

وكان أنبغ تلاميذ الأفغانى هو الشيخ محمد عبده ، أخذ عنه مبادئه وشاركه منفاه ، وعاونه في إصدار مجلة العروة الوثقى ، ثم شارك في الثورة العراقية ، ثم كانت له جهود مشكورة في إصلاح الأزهر .

كانت حركة الجامعة الإسلامية إذن من أهم المؤثرات لبعث الوعي القومي والفكرى في مصر وفي غيرها من بلاد العالم الإسلامي ومهدت هذه الحركة لظهور الثورة العراقية كما مهدت لظهور ثورات أخرى في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي .

يضاف إلى هذا عوامل أو أسباب أخرى خاصة بمصر ، لعل أبرزها انتشار روح التذمر نتيجة لازدياد نفوذ الأجانب مالياً



السيد جمال الدين الأفغاني

obeikandi.com



أحمد عرابي

obeikandi.com

وسياسياً ، وإنشاء صندوق الدين ، وتخصيص الجزء الأكبر من موارد البلاد لصالح الدائنين ، واستملاء الأجانب واعتمادهم على الامتيازات الأجنبية والقضاء المحتاط لعرقة كل إصلاح قضائي أو مالي أو إداري داخل البلاد .

وصاحب هذا كله ظهور وعي قومي جديد نتيجة لانتشار التعليم وازدياد عدد المثقفين وتقدم الصحافة ، والتجارب البرلمانية الأولى التي أتاحت للمصريين فرصة مناقشة أحوالهم في أواخر عصر إسماعيل ، ولم يعمل الساسة والحكام من جانبهم على تغذية هذا الوعي القائم الوليد وتنميته ، بل على العكس عملوا على كبحته ومحاربه ، فكان الخديو توفيق لا يؤمن بالشورى ، وكان كبير نظاره رياض على شاكته يعمل على دعم الحكم المطلق ويضطهد كل مناوئاً لسياسته .

وانفجرت الثورة بقيادة عرابي ، وانتهزت إنجلترا وفرنسا الفرصة ، ثم انفردت إنجلترا بالتدخل ، وانتهى الأمر بفشل الثورة العرابية لأسباب لا نعرض لها هنا ، ودخل الإنجليز مصر بحجة حماية الخديو ، ثم بقوا فيها واستقرت أقدامهم ، وبدأ عهد الاحتلال البريطاني ، وكرّد فعل للاحتلال ظهرت حركة وطنية قومية جديدة بزعامة مصطفى كامل والحزب الوطني تدعو لمقاومة الاحتلال ووجوب جلاء الإنجليز .

فهيأتان حركتان وطنيتان ظهرتتا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهما الحركة العراقية ، وحركة الحزب الوطني ، وقد كان لسجل منهما صدى وأثر واضح في كتابات المؤرخين المصريين ومؤلفاتهم ، بل إنا لنجد أن معظم من كتب في التاريخ من المصريين في هذا الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانوا من رجال هذه الحركة الوطنية وقادتها .

فجمال الدين الأفغانى^(١) ألف كتيباً صغيراً في تاريخ وطنه الأول بلاد الأفغان ، وسماه : « تنمة البيان في تاريخ الأفغان » ومقالات الأفغانى ومحمد عبده في « العروة الوثقى » تعتمد اعتماداً كبيراً على الحقائق التاريخية ، فهما يعرضان على المسلمين صوراً من تاريخهم المجيد لإثارتهم وإحياء نفوسهم ، ثم هي قد أصبحت

(١) عن حياة جمال الدين الأفغانى وحركته الإصلاحية راجع :

— محمد باشا الخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى ،

بيروت ١٩٣١ .

— ميرزا لطف الله : جمال الدين الأمد آبادى ، ترجمه عن

الفارسية إلى العربية صادق نشأت وعبد النعم حسنين ، القاهرة ١٩٥٧ .

— محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى ، حياته وفلسفته ،

القاهرة ١٩٥٧ .

— Browne (E. O) : *The Persian Revolution*. London 1909.

— Gibb : *Modern Trends in Islam*. Chicago 1950.

— Gibb : *Whither Islam*. London 1932.

وانظر أيضاً المراجع الواردة في الهامش التالى .

فما بعد مرجعاً من أهم المراجع التي لا يصح أن يغفلها من يريد التاريخ للثورة العرابية والتعرف على أسبابها الممهدة لقيامها ، وعلى آراء الزعيمين المصلحين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وقد ظهرت عناية محمد عبده^(١) بالتاريخ منذ عين في سنة

(١) انظر عن ترجمته :

- محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣١ ؛ والجزء الثالث ، القاهرة ١٩٠٦ ؛ والجزء الثاني ، القاهرة ١٩٠٨ .

- جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق ، ج ١ ، القاهرة ١٩١٠ .

- أحمد الشايب : محمد عبده ، الإسكندرية ١٩٢٩ .

- مصطفى عبد الرازق : محمد عبده ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٤٦ .

- عبد المنعم حمادة : الأستاذ الإمام محمد عبده ، القاهرة (بدون تاريخ) .

- أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، القاهرة ١٩٤٨ .

- عثمان أمين : محمد عبده ، مجموعة أعلام الإسلام ، القاهرة ١٩٤٤ .

- عثمان أمين : رائد الفكر المصرى محمد عبده ، القاهرة ١٩٥٥ .
(وانظر ما به من مراجع) .

- عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، القاهرة ١٩٣٧ .

- العروة الوثقى ، طبعة جديدة ، القاهرة ١٩٥٧ .

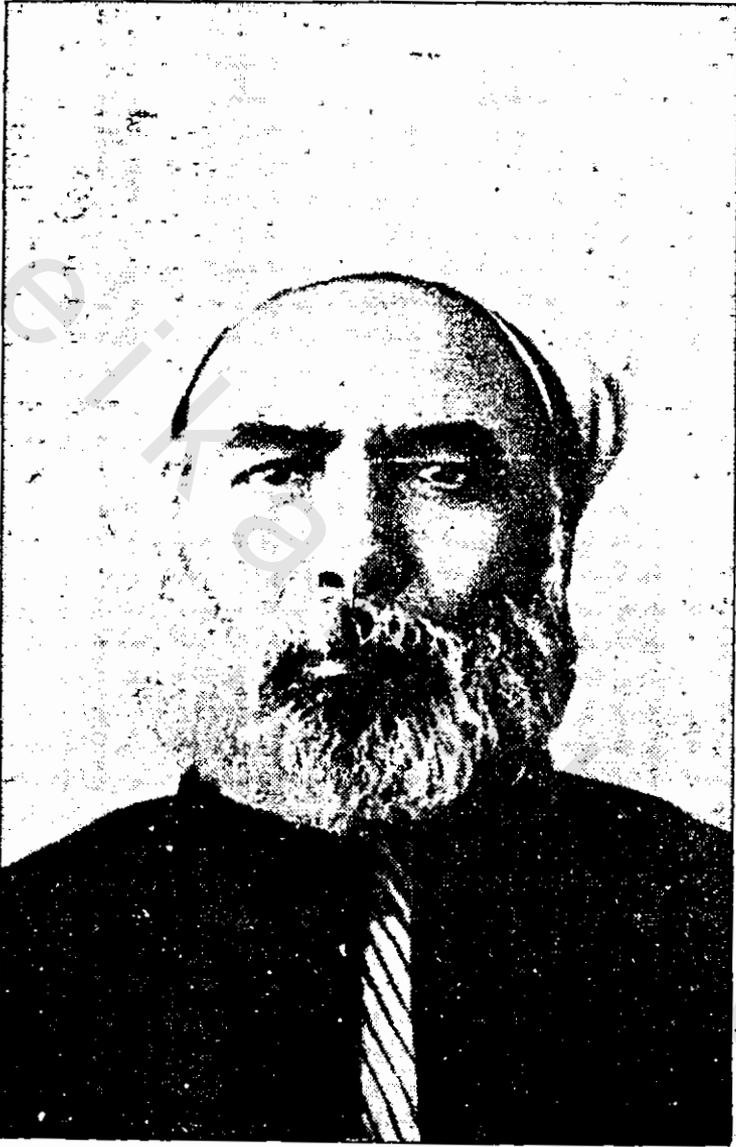
- تشارلز آدمز : الإسلام والتجديد في مصر ، ترجمة عباس محمود ،

القاهرة ١٩٣٥ .

١٨٧٨ مدرساً للتاريخ في مدرسة دار العلوم ، فأنجبه بتلاميذه
 اتجاهات جديدة ، وقرأ معهم مقدمة ابن خلدون ؛ ثم هو قد أسهم
 في حركة التأليف التاريخي بكتابة كثير من الرسائل والكتب ،
 ومن المؤسف حقاً أن رسائله وكتبه التاريخية قد فقدت ولم
 يصلنا منها شيء ، وقد انفرد بذكرها السيد محمد رشيد رضا في
 كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » ، وهي :

- ١ - تاريخ إسماعيل باشا .
- ٢ - فلسفة الاجتماع والتاريخ (وهو كتاب كان يضم
 محاضراته في مدرسة دار العلوم في سنتي ١٨٧٨ - ١٨٧٩ عن
 ابن خلدون وآرائه في الاجتماع) .
- ٣ - تاريخ أسباب الثورة العراقية ، وقد نشرت أجزاء من
 هذا الكتاب في « تاريخ الأستاذ الإمام » ، ج ١ ص ١٥٩

= — Blunt (W.S) : *Secret History of the English Occupation
 of Egypt. London 1907* (والترجمة العربية نشرتها جريدة البلاغ :
 — Carra de Voux : *Les Penseurs de l' Islam. vol VI,
 Paris 1926.*
 — Gibb : *Studies in Contemporary Arabic Literature
 (reprinted from the Bulletin of the School of Oriental Studies,
 1928-1930)*
 Osman Amin : *Muhammad Abduh, Essai sur ses idées
 philosophiques et Religieuses. Le Caire 1944.*
 Blunt : *My Diaries. 2 vols. London 1919-1920.*
 Sabry (M) : *La Genèse de L'Esprit National Egyptien,
 Paris 1924.*



الشيخ محمد عبده

obeikandi.com

وما بعدها» وأجزاء مختلفة أخرى في كتب مستر « بلنت »
 وفي رسالة الدكتور محمد صبرى باللغة الفرنسية عن نشأة الروح
 القومية المصرية التي طبعت في باريس سنة ١٩٢٤ .

والكتاب الذى ألفه الشيخ محمد عبده عن أسباب الثورة
 العراقية دون شك أهمية كبرى فى فهم هذه الثورة وأسبابها
 ودوافعها ، ويبدو أن الشيخ محمد عبده قد تناول أحداث الثورة
 وأبطالها وأسرارها بشيء من الصراحة ، فكان هذا سبباً فى اختفاء
 الكتاب وعدم طبعه أو ظهوره ؛ يؤكد هذا ما قاله الأستاذ على
 عبد الرازق فى ترجمته لأخيه الشيخ مصطفى التى قدم بها الكتاب
 الذى يتضمن آثاره الفكرية والذى طبع أخيراً بعنوان « من
 آثار مصطفى عبد الرازق » ، فقد قال فى هذه الترجمة :

« ولا شك أن إعجاب أخى مصطفى بالمرحوم الشيخ محمد عبده
 قد بلغ الغاية ، بل أكاد أقول إنه قد جاوز الغاية ، فهو لم يترك
 أثراً من آثاره إلا بذل الجهد فى الاطلاع عليه وادخاره ، وبلغه
 أن للشيخ - رحمه الله - مؤلفاً عن ثورة أحمد عرابى لم يكن
 طبع . وما كان ليكن طبعه ، لأن فيه حقائق لو نشرت لايبضت
 لها وجوه واسودت وجوه ، ولا تضرعت مراكز أناس عالين ،
 وارتفعت مراكز أناس لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، وكثير
 ممن تعرض لهم الشيخ فى تاريخه لا يزالون أحياء ، هم وأبناؤهم

وشيعتهم ، وفيهم من تخشى قوته ، ولا يؤمن من سطوته ، ولم يترك أخى مصطفى وسيلة قريبة أو بعيدة لمطالعة هذا التاريخ إلا ابتغاها ، وأغلب الظن أنه قد وصل إلى مطالعته إما بواسطة المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان ، أو المرحوم الشيخ رشيد رضا ... »

وظاهرة جديدة نلاحظها في إنتاج من كتب في التاريخ من رجال الثورة العرابية ، وهي ظاهرة كتابة المذكرات الشخصية ، فمعظم قواد هذه الثورة ورجالها كتبوا بعد فشلها مذكرات لهم ، فكتب أحمد عرابي مذكراته بعنوان « كشف الأستار عن سر بالأسرار »^(١) .

وكتب عبد الله النديم - خطيب الثورة - سيرته في المدة التي كان مختفياً فيها في كتابه « كان ويكون » ، كما كتب مذكراته عن الثورة نفسها بعد فشلها في صورة خطاب مرسل منه إلى عرابي ، وقد عثر على مخطوطة هذه المذكرات أخيراً الدكتور محمد أحمد خلف الله ، ونشرها لأول مرة مع مجموعة أخرى من رسائل النديم ومقالاته النادرة بعنوان : « عبد الله النديم ومذكراته السياسية ، القاهرة ١٩٥٦ . » ، وكتب محمد عبده مذكراته عن الثورة العرابية التي أشرنا إليها .

(١) طبع أكثر من طبعة في القاهرة ، وتوجد نسخة كاملة من هذه المذكرات مخطوطة في دار الكتب المصرية



عبد الله النديم

obeikandi.com

وكتب محمود فهمي — أحد قواد الثورة الثلاثة — وهو في منفاه في جزيرة سيلان تاريخاً كبيراً للعالم منذ أقدم العصور إلى أواخر القرن التاسع عشر وسماه « البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر » .

وقد اعتمد عند تأليف هذا الكتاب على كثير من المراجع الأوربية وبدأ بالأخذ عن المراجع الفرنسية ، وبعد تعلمه اللغة الإنجليزية في سيلان رجع كذلك إلى المراجع الإنجليزية ، ويبدو أنه لم يعثر في سيلان على أى مراجع تاريخي عربي ، فقد لاحظت أنه اعتمد على المراجع الأوربية اعتماداً كلياً ، حتى عند تأريخه للعصر الإسلامي وللدول الإسلامية ، والكتاب ليس له من أهمية إلا أنه يمثل ظاهرة جديدة ، وهو خروج المصريين من عزلتهم في القرن التاسع عشر وبدء عنايتهم بتاريخ العالم والتأليف فيه ، وأهم ما في هذا الكتاب الفصل الذي يؤرخ فيه محمود فهمي لمصر منذ الثورة العرابية إلى عهد عباس الثاني ، فهذا الفصل أشبه ما يكون بالذكريات الشخصية ، يروي فيه كاتبه الأحداث كما شاهدها وكما شارك فيها وكما صنعها أحياناً ، وهو من المراجع الهامة لدراسة تاريخ الثورة العرابية ، مقدماتها وأحداثها ونتائجها ، ولدراسة حياة محمود فهمي وصحبه من زعماء الثورة في منفاهم في جزيرة سيلان .

فهؤلاء أربعة من رجال الثورة العرابية كتب كل منهم

مذكراته الشخصية يعلل فيها أسباب قيامها وأسباب فشلها ، ولعل السبب الذي دفعهم إلى كتابة هذه المذكرات أنهم جميعاً — فيما عدا النديم قد نفوا بعد محادثتهم ، كما أن النديم ظل مختلفياً تسع سنوات طوالاً فكأنه كان منفيّاً كذلك ، فأرادوا أن يشغلوا بعض وقتهم في المنفى في كتابة هذه المذكرات ، ولعل كل واحد منهم أراد أن ينفي عن نفسه أن قد كانت له يد في فشل الثورة ، ومهما يكن من أمر فهذا لون جديد من ألوان الكتابة التاريخية عرفته مصر لأول مرة في القرن التاسع عشر ، ولم تكن لها معرفة به من قبل ، وسيتابع زعماء مصر السياسيون وقادتها الوطنيون في القرن العشرين كتابة مذكراتهم ، فنسمع أن مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وإسماعيل صدق ومحمد حسين هيكل وغيرهم كتبوا مذكراتهم ، ولا زالت هذه المذكرات مخطوطة لم ينشر منها غير مذكرات هيكل بعنوان « مذكرات في السياسة المصرية » وقد طبعت في القاهرة سنة ١٩٥١ .

أما الفريق الثاني من فريق الحركة الوطنية ، فهو فريق مصطفى كامل وحزبه الوطني ، وقد كان مصطفى ومعظم أنصاره من المحامين الذين درسوا القانون ، كما أنهم كانوا في أول مراحل دعوتهم يؤمنون بفكرة الجامعة الإسلامية وبضرورة الالتفاف حول الخلافة العثمانية ، وكانوا يريدون بهذا أن يثبتوا بطلان الاختلال البريطاني من الناحيتين القانونية والدولية ، لأن مصر كانت عند



مصطفیٰ کاہل

obeikandi.com



محمد فرید

obeikandi.com

نزول الإنجليز بها تابعة لدولة أخرى ، ولهذا نجد أن معظم خطب مصطفى ورجال حزبه ومقالاتهم كانت تتجه في أول مراحل دعوتهم إلى محاربة الاستعمار البريطاني وسياسة إنجلترا في الشرق الأدنى بوجه عام ، وحججهم التي كانوا يستشهدون بها كانت في معظمها حججاً قانونية تاريخية ، أما القانون فهم رجاله وقد درسوه ومارسوه ، وأما التاريخ فقد أقبلوا على دراسته ليستعينوا به في مجالات دفاعهم عن قضيتهم الكبرى ، قضية مصر واستقلالها ، ولهذا نجد معظم رجال هذه المدرسة الوطنية يؤلفون كتباً في التاريخ تتصل بالمسألة الشرقية ، أو الدولة العثمانية ، أو عدم شرعية الاحتلال البريطاني أو مراكز الاحتلال البريطاني لمصر والسودان من الناحية الدولية ، أو تاريخ المشاكل التي مهدت للاحتلال ، كمشكلة الامتيازات الأجنبية ، ومشكلة قناة السويس ، ومشكلة السودان ، ومشكلة الملحقات ، وهكذا . وسنورد فيما يلي نماذج من المؤلفات التاريخية التي كتبها رجال هذه المدرسة الوطنية لتأكيد ما ذكرناه :

فقد ألف الزعيم الأول للحزب الوطني مصطفى كامل كتاباً من جزئين في تاريخ المسألة الشرقية (القاهرة ١٨٩٨) ، وكتاباً آخر عن اليابان بعنوان « الشمس المشرقة » .

وألّف الزعيم الثاني للحزب محمد فريد كتاباً في تاريخ الدولة العلية العثمانية ، (طبع في القاهرة سنة ١٨٩٦) ، وكتاباً آخر

في تاريخ محمد علي عنوانه : « البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس
العائلة الخديوية » (القاهرة ١٣٠٨ هـ) ، وكتاباً ثالثاً في
« تاريخ الرومانيين » (طبع في القاهرة ١٩٠٠) .
وكتب عمر لطفى^(١) من كبار المحامين ومن قادة الحزب
الوطني كتاباً عن « الامتيازات الأجنبية » (طبع في القاهرة
١٣٢٣ هـ) .

وكتب الدكتور أحمد فؤاد — وهو من رجال الحزب الوطني
البارزين — كتاباً عنوانه : « مصر والسودان في نظر العلم
والتاريخ » .

وكتب علي فهمي كامل سيرة أخيه مصطفى كامل ، كما ترجم
الرسائل المتبادلة بينه وبين مدام جوليت آدم عن الفرنسية إلى
العربية ، وترجم كذلك كتاباً آخر لهذه السيدة عنوانه « إنجلترا
في مصر » . الخ . الخ .

والتزم هذا التقليد رجالات الحزب الوطني في القرن العشرين ،
وكان آخر من كتب منهم في التاريخ عبد الرحمن الرافعي مؤرخ
الحركة القومية في مصر .

(١) توفي سنة ١٩١٢ وترجمته في مجلة الهلال سنة ٢٠ ، ص ٣٢٣ ،
زيدان ، تاريخ الآداب العربية ٤ / ٢٦٧ .